

قال اناطول فرانس « اننا مسنون حين نولد » وما أصدق كلمته
فنحن نرث تقاليد ومقاييس وخبرات كانت النهاية لمن سبق وهي البداية
لنا . وإن نحن عدنا اليها فاننا لا نقصد بعث ما كان بل إدراك ما لانزال
نعيش فيه وفهم مكوناتنا ومعرفة البداية . ومتى أدركنا هذه الناحية
سامنا بما يسمى افبون التاريخ ، وأفهمنا من يدعو الى إغفال ما مضى ان
الشرايين لن تنقطع مع بقاء الحياة .

لقد عنونت كلمتي بـ « خطوط في تاريخنا » ، والواقع ان كل دراسة
لتاريخنا تدعو للتساؤل حول نقطتين أساسيتين :

اولاهما : هل ان القيم والمقاييس الخلقية أزلية ام انها تتبدل بتبدل
الظروف ؟

وثانيها : هل نستطيع التوفيق بين الحضارة الغربية والأخذ بها وبين
إرثنا الثقافي والاجتماعي ومقاييسنا، وبتعبير أخصر، ذاتيتنا؟

أما القيم الأخلاقية فيبدو لي انها بين ناحيتين : ناحية القيمة الذاتية
وناحية القيمة التطبيقية . فهذه القيم اتفق عليها صيانة للمجتمع وارتقاءً

خطوط في تاريخنا

بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري

بسويته وتمذبه وضماناً للطمأنينة فيه . وقد اختلف تطبيقها من عصر الى
آخر حسب تطور الظروف . فالصدق والوفاء والاستقامة والعفة قيم خلقية
لها أهمية كبرى في كل مجتمع مهذب . ولكن التطبيق اختلف . ولعل
أقوى مثل لذلك مفهوم العفة فقد ادت العناية بها الى الواد في فترة ، والى
حجر النساء في دورهن في فترات ، والى انواع غريبة من وسائل الحيلة .
وهي في القرى لا تمتع الاختلاط المحشم ، وفي الغرب يقتصر مفهومها على
الوفاء المطلق للزوج دون حدود مفهومة قبل ذلك ، وأساسها صيانة
العائلة وحماية النسل وتحديد المسؤولية ، وهي في كل حالة وليدة ظروف
المجتمع ونواحيه المختلفة . وخذ مثلاً آخر مصلحة المجموع : فانك لن تجد
مجتمعاً لا يؤكد على أهمية الجماعة وسلامة المجموع قبل الفرد ، ويظهر ذلك
جلياً في كل تشريع ، فتجد القبيلة تضع الرابطة القبلية فوق كل رابطة .
ثم تجد رابطة المدينة في حكومات المدن ، ثم رابطة المجتمع الاكبر في
الدولة . وهذه الرابطة قوية حين تكون الثقة الاجتماعية وروح الجماعة قوية
وتكون مفككة عند الانحلال . ففي القبيلة تجد العصبية القبلية خاترة
وتجد عصبية الأسرة تنازعها حين تضعف القبيلة ، وفي المدينة تظهر عصبية

الآداب

مجلة شهرية تعنى بسؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب ١٠٨٥ - تافون ٢٣

اصحاب الامتياز

منير البعلبكي ؛ سهيل ادريس ؛ بهيج عثمان

AL-ĀDĀB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban. B.P. 1085

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

هيئة التحرير

(حسب الاحرف الهجائية)

احمد سليمان الأحمد	قديري حافظ طوقان
علي أدهم	عبد الله عبد الدائم
ذو النون ايوب	مارون عبود
خليل تقي الدين	ابراهيم العريض
جورج حنا	عبدالله العلايلي
شاكر خصباك	توفيق يوسف عواد
رئيف خوري	نبيه امين فارس
عبد العزيز الدوري	شكري فيصل
قسطنطين زريق	نزار قباني
احمد زكي	صباح محي الدين
نقولا زيادة	انور المعداوي
وداد سكاكيني	نازك الملائكة
فؤاد الشايب	عبد الحميد بونس

ان الحضارة الغربية تتكون من :

- ١ - التراث اليوناني
- ٢ - العلم الحديث والطريقة العلمية .
- ٣ - المسيحية .

وتولدت عن هذه الجذور وعن تطوير المجتمع الغربي ثورات حديثة عالمية الاثر كالثورة الصناعية ومبادئ الثورة الفرنسية والثورة الاشتراكية . وفي الوقت الذي وصلتنا فيه الموجة الغربية كانت قوة الدفع للعلم وللثورة الصناعية بينما لم نر اثاراً للتراث اليوناني . وأما المسيحية فشرقية فهي وان كانت أساس القيم والمثل الا أنها ضعفت أمام الموجة الحسية والاتجاهات النفعية التي طغت في الغرب ، وعلى كل حال لم تكن الدافع للتوسع وإن مرت فترة استخدمت فيها كوسيلة للمنافع المادية . وان تلقنا الى رد الفعل في الشرق العربي وجدناه طبيعياً ذاتياً يتمثل في بحث الثقافة العربية وهذا اساس الوعي القومي ، وهذا ما يجعلني اؤكد على انها قومية ثقافية ليست عنصرية وتتمثل في بعث الاسلام في الحركات الاسلامية ، وهذه كلها تؤكد على تثبيت القيم والمثل وعلى تجديد الذات . ومع ان الموجة الغربية جاءت عدائية احياناً وادت الى نفرة منها والى دعوة البعض لمقاومة كل ما هو غربي الا ان آثارها الاجتماعية والاقتصادية والفنية كانت واسعة ، بل ونجد محاولات مبكرة في بعض بلاد الشرق الادنى لاقتباس اساليبها المادية واسلحتها لحماية الذات . وقد دلت البحوث على ان التقاء الحضارات وتأثير الاقوى منها يختلف تبعاً للظروف . فالحضارة الغربية التي جاءت الى الشرق الاقصى تؤكد على الطابع الديني مع العلم بان الصناعة فشلت تماماً في التغلغل وانها حين عادت تؤكد العلمانية والصناعة في القرن التاسع عشر تغلغلت بتأثير هذين العنصرين وانتشرت .

وبلاحظ ان الحضارة او المجتمع الآخذ بحل الحضارة الغازية الى عناصرها المكونة لها كما تتحلل الاشعة في الماء، وان مقاومة المجتمع المهاجم حضارياً تشد كلما كانت قيمة العنصر الحضاري الغازي ثقافية ذاتية وتقل كلما كان طابع العنصر عاماً . ومعنى ذلك ان النوع الاخير يتغلغل بسرعة اقوى من الاول . ولكن هذه التجزئة الى العناصر فيها مخاطر كبيرة فانك حين تجرد عنصراً من بيئته وظروفه التي تجعله في توازن مع العناصر الاخرى وتكسبه قيمته الفعلية قد يصبح خطراً حين ينفرد بنفسه . ولعل تحطيم الذرة في العلوم الطبيعية يعطي مثلاً لذلك ، وبهذا ينطبق

الأسر والعوائل والمحلات وهي عصبية محربة . وفي الدولة تجد في حالات الانحلال عصبية الأسر (المحسوبية) وعصبية الطوائف والأديان وعصبية الدين ، وكلها تهدد الكيان العام وتجعل عقلاء القوم وقادتهم المخلصين ينادون بوجوب التخلص منها وتوجيه التهذيب الى ما يحفظ الكيان . واذن فالقيمة الذاتية قائمة والتطبيق مختلف ، مع ان كل جهة تتمسك بنوع التطبيق الذي تجد نفسها متجهة اليه . ودراستنا لتاريخ الامة تمكّن من فهم نفسياتها ومن معرفة تلك العصبية التي أذقت الامة الامرين وإدراك الروابط التي كونت روح الجماعة وحفظت الكيان في وجه الخطر وكانت مصدر الحركة والقوة الدافعة .

اما النقطة الثانية فهي التوفيق بين الاخذ بالحضارة الغربية وبين ارتنا او ذاتيتنا . وهذه ناحية مهمة يساعدنا التاريخ على جزء هام من الاجابة عنها . ففي العصر القديم جاءت موجة الحضارة اليونانية التي خلفتها البيزنطية فعمرت الشرق الادنى سياسياً وعسكرياً وثقافياً وتغلغلت في المدن وبهرت اصحابها . ولكنها لم تصل القرى والريف ، وبدأت حركة تقليد لها واقتباس منها ثم بدأ رد الفعل تدريجياً في المنطقة . واول رد فعل لها كان نشوء الحضارة الساسانية ونشاط الحضارة الآرامية . ولكن الهلينية بقيت مسيطرة حتى جاءت موجة الاسلام فأكدت الذات المحلية والارث الحضاري من جديد وكونت فيها قوة الدفع . وقد وجد العرب والمسلمون امامهم حضارات أرقى منهم مادياً وتنظيماً وهي حضارات الهلال الخصيب (ساسانية - بيزنطية - آرامية) وتأثروا بها في وضعهم الاجتماعي واقتبسوا بعض العادات وأخذوا بعض النظم الادارية ونقلوا العلوم والفلسفة والطب ، ولكنهم كانت لهم عقيدتهم ومثلهم الخلقية ومقاييسهم وقيمهم ، ولم يكن في الحضارات القائمة من القوى المعنوية والروحية ما يذكر ، فكان نتاج ذلك ان وجهوا النواحي المادية التي اخذوها في خدمة مثلهم وقيمهم ، وهذه وجهة مهمة تدل على تركيز الذات ورسوخ القيم ، وهي صفة تلازم كل حضارة حية في دور الابداع ، لان العلوم مع كونها مجردة الا انها تتلون عادة بطابع الحضارة التي تزدهر فيها .

اما في العصر الحديث فقد غرقتنا الموجة الغربية بصورة مفاجئة تذكرنا بالموجة الاولى ، وتغلغلت في المدن ومزقتنا سياسياً وبهرتنا مادياً ، ولم تقدم لنا قيماً ومثلاً تحل محل ما لدينا ولكنها زعزعت ثقتنا بها . ولهم هذه الموجة يلزمنا ان نتذكر

المثل الانكليزي « قد يكون غذاء شخص سماً لشخص آخر » ولكن الموضوع لا ينتهي بهذه البساطة، فالعنصر المأخوذ يسعى لجلب العناصر الاخرى والظروف الملائمة له من حضارته الاصلية، فيبدأ رد الفعل في الحضارة المغزوة بعنف وقد يؤدي الى مشاكل لاحد لها دون خير يذكر .

ولم يكن استعمال غاندي للمغزل والجومة المحلية لنسج القطن مجرد تسلية بل لشعوره بأن الحيط يجلب وراءه خيوطاً تتجمع وتنسج في نسيج اجتماعي حضاري غربي سيقضي على ذاتية الهند، ورأى انه اذا اراد ان يجنب الهند هذه النتيجة فمن الضروري الابتداء بالمغزل .

وقد حلل المجتمع العربي الاسلامي الحديث الحضارة الغربية بصورة طبيعية الى عناصرها، فانتبه للتبشير الذي يحمل الثقافة الغربية وشل اثره ومنع تغلغله، وحاول تقليد قوة الغرب المادية ايسعملها ضده فلم ينجح في عزل النواحي المادية عن غيرها تماماً ونرى انه تردد في بعض الاقطار واندفع في اقطار اخرى كتركيا، وبان الاتجاه كان بسيطاً قاصراً على ناحية لكنه سرعان ما غمر كل شيء وجعل حتى تركيا تعيد النظر اخيراً في وجهتها. هذا ولم يدرك بعد الصلة بين القوة وبين العلم التجريبي وبين الاقتصاد .

ومع اننا انتبهنا تدريجياً الى العلم الا ان العناية بالاقتصاد اهملت بدرجة غريبة . ونظرنا الى النظم الغربية واخذنا بعضها منفردة عن الثقافة التي احاطتها والبيئة الاجتماعية والنفسية العامة التي نشأت فيها . ومن نتائج ذلك ان طبيعة هذه النظم اختلفت وآثارها لم تكن كما كنا نتظر، بل ان كثيراً من المفاهيم الغربية صارت لها مفاهيم اخرى لدينا ، ودعونا لكثير من النتائج .

ويبدو لي ان الشرق العربي لا يزال يتلمس طريقه، ولا يزال موقفه في اشكاله المختلفة المبعثرة وليد شعور بالاخطار ووليد نفرة منها ووليد شك بما قتلته الحضارة الغربية بالوجه الذي بدت فيه . ولذا فهو يعنى بالاستفادة من نواحي القوة غير مكترث بتحليل اشتباك نواحي الحضارة الغربية وصعوبة تجزئتها .

وقد اخذنا نشعر ان الاسس هي القيم والمثل والمقومات التي تكون الذات الحضارية وان هذه لم يتعد اثر الغرب اعادة النظر فيها وقلة الثقة بها مؤقتاً، وان مجابهة الغرب ادت الى تجديد العناية بها وكما زاد الاحتكاك بالغرب تجددت العناية بها وتأكدت الى جانب العناية بالعلوم والصناعة والاقتصاد .

وهذا الشعور مجد ذاته دليل على يقظة واعية بعد تنبه مرتبك . وما دام الطابع الحضاري يعتمد عليه وما دامت العلوم والصناعة والاقتصاد عالمية امكن الاستفادة منها في المجتمعات والحضارات المختلفة ويتوقف على عبقرية كل حضارة نوع الاستفادة ووجهتها . كما انه ليس من الضروري ان تمر المجتمعات الآخذة بنفس الدروس التي مر بها الغرب لاختلاف الجذور التاريخية من جهة ولا مكان تجنب الكثير من الاخطار والمشاكل من جهة اخرى .

لقد جوهرت الامة العربية جهزات مختلفة في الماضي والحاضر وكانت استجابتها لهذه الهزات مختلفة . فهي حيناً ايجابية كما هو الحال في نهضتنا الاولى وفي فترة الحروب الصليبية وحتى الان في الفترة الحديثة . وهي حيناً سلبية كما حصل عند الفتح المغولي وما تلاه . وترى ان استجابة الامة ايجابية حين تكون نتيجة لفهمها لمشاكلها وللأخطار التي حلت بها وحين تضع خطة ايجابية تضمن التوجيه والحلول لمشاكلها وتحقيق اهدافها كلاً او جزءاً .

ومن المفيد هنا ان نقارن بين نهضتي العرب في تاريخهم المعروف - النهضة الكبرى في دور ظهور الاسلام ، واليقظة الصغرى وهي يقظة الامة في العصر الحديث ولكل منها مهادت واتجاهات مع وجود فوارق مهمة وملاحظة المهادت والاتجاهات بضوء ظروف الامة التاريخية للكشف عن نواح مهمة .

وعلينا ان نلاحظ مبدئياً قبل المقارنة ان اليقظة الصغرى هي استمرار وبرعم من النهضة الكبرى . ففي النهضة الكبرى نرى مهادت تسبقها، فهناك وعي ديني يتضح في حركة الاحناف وفي التبرم بالعبادة الجاهلية التي استجالت الى طقوس جامدة ونزى وعياً سياسياً داخل الجزيرة بعد ان اطبقت عليها الدول من اطرافها - البيزنطيون في الشمال الغربي والاحباش في الجنوب والفرس في الشمال الشرقي والجنوب الغربي ، ونزى وعياً اجتماعياً يتمثل في حركة الاسواق وفي نهضة المجتمع المكي التجاري وفي الاتصال بالحضارات المجاورة، ووعياً ثقافياً يتمثل في ظهور اللهجة الادبية العربية التي تطورت الى الفصحى واصبحت فيما بعد لغة الثقافة .

اما مركز الحركة ففي جهة حرة من الجزيرة وعلى طرفها ، في الحجاز الذي يمثل خلاصة ثقافة الجزيرة وحضارتها والذي هو

خارج حدود سيطرة الدول الثلاث التي اشرنا اليها (البيزنطية والساسانية والحشية) وهو الذي قام بحركة التحرير .

كما ان الحركة سارت بخطى منسجمة بان بدأت بالسيطرة على المركز (الحجاز) ثم تدرجت الى توحيد العرب في الجزيرة وبعد ذلك فقط جابهت الخارج .

اما في الحالة الثانية فنلاحظ ظهور وعي ذاتي اسلامي محدود في بعض المناطق في الشام والجزيرة ثم في مصر . وهدفه نفذ الحمول والرجوع لمنابع الاسلام الاولى .

ثم هناك الموجة العربية الخارجية التي بهرت الشرق الادنى بتقدمها المادي وبرقي حضارتها ودفعته الى تقليدها من جهة كما اشعرته بالخطر بتغلغلها السياسي والمالي وبمجاولاتها التبشيرية من جهة اخرى وولدت الشعور بضرورة رد هذا العدوان الخطر .

وهناك حركة وعي ثقافي في الهلال الخصيب خاصة ، فيها استنهاض للهمم بالتذكير بالماضي ، وتدرج الى بعث اللغة والى محاولة احياء التراث الادبي ، وتطور - نتيجة موقف الترك - الى ثورة على الوضع والى تبلور الحركة القومية .

أما الوعي في الناحية الاجتماعية فقد بقي خاملاً لفترة ولم يتعد تقليد العرب ولنا في حديث عيسى بن هشام للمويلحي (مطلع القرن العشرين) خير دليل لذلك .

ونلاحظ ايضاً ان مركز الثورة على السيادة الاجنبية والمحاولات الاستقلالية حصلت في ثلاث جهات كلها تحت السيادة العثمانية - قوية أو ضعيفة - وهي حركات اختلفت في وجهتها . فالحركة الوهابية كانت محلية اصطدمت بالدولة المسيطرة وجمليتها محمد علي فضررت ضربات قاصمة . وحركة محمد علي لم تكن إلا محاولة خارجية لتكوين امبراطورية في الجزء العربي فلم تلق استجابة خارج مصر . ومع انها توسعت مؤقتاً الى الشام إلا ان اثرها لم يتعد مصر . وكلا الحركتين لم تلق استجابة خارج منطقتيهما ، فكانت محلية .

ولعل المحاولة السياسية الوحيدة التي تعدى صوتها حدودها الاقليمية هي حركة الشريف حسين التي وجدت من يسندها في الهلال الخصيب اضافة الى الحجاز ، لانها وثيقة الصلة بالوعي العربي في هذه الجهات ، ولانها اصبحت بعد قيامها رمز هذا الوعي ، ومع ان الظروف اسعفتها مؤقتاً إلا انها كانت اضعف من ان تجابه المطامع الاستعمارية المتوثبة التي خلفت الامبراطورية العثمانية المنهاره .

ومع وجود قوى متضاربة داخل الجزيرة العربية في حركة الاسلام الكبرى إلا انها تنازعت السلطان فيما بينها دون تدخل خارجي ، فتغلبت الحركة الاسلامية المتوثبة قبل ان تجابه القوى الاستعمارية بينما كان الاستعمار - عثمانياً أو أوربياً - عاملاً اساسياً في وقف الحركات التحررية الحديثة عند حدها . هذا من ناحية الظروف المادية ولننظر الى الاسس :

ففي النهضة الاولى تبلورت اوليات الوعي في النواحي المختلفة في حركة واحدة . نعم اؤكد وحدتها في الحركة الاسلامية التي كانت حركة شاملة تعالج كافة نواحي الحياة : سياسية ، اجتماعية ، اقتصادية ، ثقافية ، روحية ، تتميز بان لها ذاتاً وشعوراً بالكيان ، ودعوة الى رسالة . أما في الفترة الحديثة فان الوعي اتخذ وجهتين - وجهة ثقافية قومية ووجهة اسلامية - وهذه ناحية ضعف واضحة كان للظروف الداخلية والخارجية اثر فيها . إذ انها أحدثت فجوة في الصفوف مع ان عوامل الصلة والتقارب والانسجام قوية بين الوجهتين . ولتوضيح هذه الصلة اذكر ان الحركة الاسلامية الكبرى كانت صرخة ضد الكثير من القيم والمثل وصرخة ضد هذه البداوة وضد كثير من النواحي المادية المألوفة ، ولكنها مع ذلك كانت عاملاً اساسياً في بعث الارث المتمثل في اللغة . بل ولعلها مسؤولة عن تنمية اللغة وشموها بصورة لا سابقة لها ، فهي لم تقطع هذا الاساس الشامل بل نمته . وتطور الاسلام ودعوته كان الاتجاه الاسلامي والاتجاه اللغوي الثقافي عصي الحياة والاستمرار طيلة تاريخ العرب ، ومعنى ذلك ان كل دعوة لتجديد الذات وبعثه ملازمة بان تستند اليها معاً .

أما من ناحية الشمول فالوعي بوجهته لا يزال ناقصاً وإلا فأين البرامج والاتجاهات الواضحة التي تعطي الحلول لمشاكلنا بنواحيها المختلفة ، سياسية ، اجتماعية ، وثقافية واقتصادية ... نعم ان الخطر الخارجي شغلنا بالناحية السياسية ولكن الظن بإمكان فصل نواحي الحياة العامة في حد ذاته دليل على عدم تكامل الوعي (لقد كانت الحركة القومية حتى قبيل الحرب الاخيرة حركة سياسية رومانتيكية ليست واضحة الفلسفة أو البرنامج) . لقد شغلنا الخطر الخارجي عن المشاكل الداخلية ولا يزال موقفنا منها في كثير من الاحيان سلبياً في حين اننا لم نتفحص المشاكل والأوضاع على ضوء نشأتها وظروفها ولم نضع الحلول ونرسم الاتجاهات التي يضمن السير الموجه . وفوق هذا - التتمة على الصفحة ٧٦ -